تقديم

الوجود الاستعمارى الأوربى فى العالم العربى ظاهرة حديثة ، بدأت فى أواخر القرن الثامن عشر ، واستمرت حتى الآن ، بعد أن تحولت من ظاهرة استعمارية إلى ظاهرة إمبريالية . وهذا الوجود يعد استئنافاً للوجود الصليبى فى أواخر العصور الوسطى بصورة مختلفة . وفيما بين الوجودين الاستعماريين وقع العالم العربى تحت السيطرة العثمانية الإسلامية ، التى تختلف الآراء فيها ، فبينما يعدها البعض استعماراً إسلاميا ، من منطلق أن أمور العالم العربى قد وقعت فى يد غير أبنائه ، يعدها البعض الآخر حماية من الاستعمار الغربى ، من منطلق أن الوجود العثمانى قد أنقذ العالم العربى وقتذاك من خطر الاستعمار الغربى .

والمهم أن العالم العربى ، على الرغم من وقوعه تحت السيطرة العثمانية ، لم يقف مكتوف اليدين أمام الغزوة الاستعمارية الغربية ، وإنما واجهها بشراسة وقوة ، واشتبك معها فى قتال دموى عنيف ، لم يقدر له النجاح بسبب اختلال ميزان القوة بين الجانبين .

وقصة هذه المواجهة بين العرب والاستعمار الأوربى تعد صفحة مشرفة من صفحات التاريخ العربى ، يجب على العرب أن يحفظوها فى أذهانهم وقلوبهم منقوشة بحروف من نار ، لأنها تكون جزءًا من التجربة العربية الغنية الخصبة ، ومصدرًا من مصادر الفخر والشرف العربى . فلا يعيب الشعوب أن تنهزم ، ولكن يعيبها ألا تقاتل ، حتى ولو كانت تعرف أن نتيجة القتال محكوم عليها بالفشل منذ البداية . وفضلا عن ذلك فلا يجب تحميل الشعوب العربية وحدها مسئولية الهزيمة أمام الاستعمار ، وإنما تتحمل جانبًا كبيرًا منها الدولة العثمانية ، التى عجزت عن إعداد الشعوب العربية لمواجهة الاستعمار فى الوقت الذى كان الضعف يسرى فى بدنها .

وقد سبق لى أن قدمت للقارئ كتاب « الصراع بين العرب وأوربا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية » ، الذى نشرته لى دار المعارف . وكان من الضرورى متابعة الموضوع فى العصر الحديث . ولما كان عبء الغزو الاستعمارى قد انتقل من أكتاف الطبقة الإقطاعية الأوربية إلى أكتاف الطبقة الرأسمالية الأوربية ، فقد اقتضى ذلك دراسة الظاهرة الاستعمارية فى العصر الحديث ، والانتقال منها إلى دراسة الظاهرة الاستعمارية فى العالم العربى ، ثم محاولة إبراز معالم ظاهرة المقاومة فى العالم العربى – وذلك قبل الدخول فى رصد المواجهة بين العرب والاستعمار ، وتتبع الغزوة الاستعمارية – منذ أواخر القرن الثامن عشر ومقاومة العرب لها .

وكان من الضرورى فى مثل هذا اللون من الدراسة ، استكشاف البيئة الاجتماعية للمجتمعات العربية التى واجهت الاستعمار ، كأساس لفهم أسباب الهزيمة . فالمواجهة العربية الأوربية فى العصر الحديث فى حقيقتها كانت مواجهة بين مجتمع أوربى متقدم ، انتقل من المرحلة الإقطاعية إلى المرحلة البورجوازية (الرأسمالية) ، ومجتمع عربى متخلف لا يزال يعيش المرحلة شبه الإقطاعية التى يطلق عليها البعض اسم « الاقطاع الشرقى » – وبمعنى آخر أن المواجهة كانت بين الرأسمالية الأوربية والإقطاع الشرقى . وبحكم قوانين حركة تطور المجتمع البشرى فإن أية مواجهة بين طبقة جديدة صاعدة وطبقة قديمة متخلفة ، حتى ولو كانت داخل الوطن الواحد ، هى مواجهة محسومة لصالح الطبقة الجديدة . وهو ما حدث فى الوطن العربى ، وانتصرت الرأسمالية الأوربية ، وبسطت سيطرتها على العالم العربى .

ومن هنا ، ربما كان من أبرز مميزات هذه الدراسة ، أنها تدرس المواجهة العربية – الاستعمارية من منظور اجتماعى بالدرجة الأولى ، وتربط الظاهرة الاستعمارية بأسبابها الاجتماعية والاقتصادية الكامنة فى المجتمع العربى بقدر ما هى تكمن فى المجتمع الأوربى . وهذا هو السبب فى أننى مهدت لكل غزوة استعمارية بدراسة للتركيب الاجتماعى للمجتمع العربى الذى تعرض للغزو ، على أساس أن هذا التركيب وحده هو الذى يفسر أسباب الهزيمة .

ولما كانت المساحة الزمنية للدراسة تبلغ نحو قرن ونصف من الزمان ، كما أن المساحة المكانية مساحة هائلة تمتد على طول الوطن العربى وعرضه – فلذلك رأيت الأخذ بالتركيز الشديد ، مع الدقة الصارمة فى حدود أوثق المعلومات التاريخية المتاحة فى هذا الصدد ، وذلك لكى أتيح للقارئ استيعاب وتتبع أحداث هذه الدراسة ، على امتدادها الزمنى والمكانى الشاسع ، فى حيز كتاب ذى مجلد واحد ، بدلا من تتبعها فى كتاب من عدة أجزاء .

ويعرف كل مشتغل بالدراسة التاريخية أن هذا النوع من الدراسة يكلف الباحث جهدا مضاعفا ، لأنه يحتاج (أولا) إلى تجميع ضخم للمادة العلمية التاريخية ، التى تتغلغل فى كل جزء من أجزاء الحدث التاريخى ، ثم يحتاج (ثانيًا) إلى تركيز كل هذه المادة العلمية فى أصغر حيز ممكن ، واستبعاد كافة التفصيلات وحسم كل القضايا ، لكى يتاح للقارئ استجماع أطراف الموضوع فى سهولة ويسر .

ولعلى اتبعت هذه الطريقة فى كتابى : « الصراع بين العرب وأوربا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية » – ولكن بتناول مختلف – بسبب طول المدة الزمنية واتساع المساحة المكانية . واقتناعى الشخصى بأن هذه الطريقة هى وحدها من طرق البحث العلمى التاريخى ما يناسب هذا اللون من الدراسات التى تمتد على مساحات زمنية ومكانية واسعة ، بقدر ما تناسب الطريقة المعاكسة – وهى طريقة التناول المسهب – الدراسات التى تتعرض لموضوعات محدودة زمنيا ومكانيا .

وقد كان علىّ أن أتغلب على إغراء تتبع الغزو الاستعمارى للوطن العربى تتبعا مكانيًّا ، بمعنى أن أتتبع هذا الغزو فى جناح العالم العربى الشرقى أو الغربى ، ثم أنتقل إلى الجناح الآخر . فهذا التقسيم خاطئ لسبب بسيط ، هو أن هذا الغزو لم يتم على هذا النحو ، فلم يبدأ الاستعمار غزوه بالمشرق العربى وينتهى بالمغرب العربى أو العكس ، وإنما كانت ضربات الاستعمار

تهوى على كل جزء من أجزاء العالم العربى وفقًا لظروفه الخاصة به - ظروف الاستعمار - وظروف الجزء العربى الذى وقع عليه الغزو .

لذلك اتبعت طريقة التتبع الزمنى للغزو الاستعمارى لأنه - وحده - يرسم صورة متكاملة « وتاريخية » للغزو . فبدأت بالغزو الاستعمارى لمصر ، الذى استمر لمدة تقرب من قرن ، وبدأ بالاحتلال الفرنسى فى نهاية القرن الثامن عشر ، وانتهى بالاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ . ثم تناولت الغزو الاستعمارى للجزائر ، وأتبعته بالغزو الاستعمارى لتونس ، ثم المغرب ، فليبيا ، ثم المشرق العربى .

وقد اقتصرت على أحداث الغزو والمقاومة ، أو الفعل ورد الفعل ، وهو ما أطلقت عليه اسم « المواجهة » ، ولم أتعرض لحركة التحرر الوطنى العربى ، وهى الحركة التى نشأت بعد فشل المقاومة ونجاح الغزو وسقوط العالم العربى فى قبضة الاستعمار ، فهذه الحركة تختلف عن حركة المقاومة الأولى فى أنها لم تكن رد فعل ، وإنما كانت « فعلا » ظهر ونما فى ظروف استقرار الاستعمار ، واختلفت وسائله وطرقه - بالضرورة - عن حركة المقاومة الأولى ، التى اتخذت وسيلة القتال المسلح لصد الهجوم والغزو . وبمعنى آخر أن هناك حركتين : حركة مقاومة للغزو الاستعمارى ، وحركة تحرر من الاستعمار . وهذه الدراسة تختص بالغزو والمقاومة ، وأما حركة التحرر الوطنى فلها دراسة أخرى ننوى أن ننجزها فى المستقبل القريب إن شاء الله .

وقد يظن القارئ أن المقصود بحركة المقاومة للغزو الاستعمارى - التى تختص بها هذه الدراسة - هى المعارك الحربية التى خاضتها الجيوش العربية لصد الغزو فى مرحلة المواجهة ، وليس هذا بصحيح : لأن حركة المقاومة للغزو كانت أوسع مدى بكثير ، فقد اختلطت المقاومة الشعبية بمقاومة الجيوش ، ولم تقتصر على مرحلة المواجهة والتصدى ، وإنما امتدت أعوامًا طويلة اقترب بعضها من نصف القرن واقترب البعض الآخر من القرن ! . ولكن الملمح

الذى كان يجمعها جميعًا هو أنها كانت رد فعل للغزو ، وكانت تعوق تقدمه – أى على العكس من حركة التحرر الوطن التى عملت بعد استقرار الاستعمار ، وبعد أن أرسى مؤسساته وتنظيماته ، فجاءت حركة التحرر الوطنى لتوقظ الشعور الوطنى ، وتبعث المقاومة من رقاد .

وقد يبدو من هذا القول أن هناك اتفاقًا ما بين المؤرخين حول حدود الحركتين ، أى حول حدود ما ينتمى إلى المقاومة وما ينتمى إلى حركة التحرر . وفى الحق أن مثل هذا الاتفاق لا وجود له ، وبالتالى فالأمر فى ذلك خاضع لتقدير المؤرخ وفقًا لرؤيته التاريخية ومنظوره التاريخى . وفى هذا الضوء فقد كان تقديرى الخاص فيما يتصل بمصر ، هو أنها ظلت تتعرض لغزو استعمارى شبه متصل منذ الحملة الفرنسية حتى الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ . فلم تكد تنتهى الحملة حتى بدأ الاحتلال الإنجليزى بحملة فريزر عام ١٨٠١ ، وظل الصراع بين مصر والاستعمار مستمرًا طوال عهد محمد على ، وانتهى بهزيمته أمام التحالف الأوربى ، وإبرام معاهدة لندن ١٨٤٠ – ١٨٤١ ، التى وضعت أسس الوصاية الأجنبية على مصر . وفى عهد خلفاء محمد على تغلغل النفوذ الأجنبى والقنصلى على النحو الذى أسقط مصر فى قبضة الاستعمار من الناحية الفعلية ، وأدى إلى الثورة العرابية التى انتهت بالاحتلال البريطانى لمصر فى عام ١٨٨٢ . ومن هنا فعلى الرغم من أن الثورة العرابية تنتمى لحركة التحرر الوطنى ، فإنها تنتمى من جانبها الآخر إلى حركة المقاومة ، لأنها تصدت بجيوشها للغزو البريطانى ، وظلت تحاربه حتى انهارت المقاومة ، واستسلمت البلاد .

كذلك الأمر بالنسبة لحركة المقاومة فى الجزائر ، فلم تنته بانتهاء مقاومة جيوش الداى حسين باشا وتوقيعه وثيقة الاستسلام يوم ٤ يوليو ١٨٣٠ ، وإنما قامت حركة المقاومة تحت قيادة الأمير عبد القادر لتستمر نحو خمسة عشر عاماً ، واستمرت المقاومة بعده حتى ثورة مقرانى فى سنة ١٨٧١ ، التى انتهت بعدها المقاومة الجزائرية للغزو الفرنسى ، واستمر ذلك مدة نصف قرن تقريبًا .

وهذان المثالان ينطبقان على كل حركات المقاومة للغزوة الاستعمارية تقريبًا

مما سوف يراه القارئ على صفحات هذا الكتاب ، الذى آمل أن يشحذ ذاكرة شعوبنا العربية ، ويعرفها بنفسها وبتاريخها النضالى ، ويستبقى فى قلبها الأمل فى مستقبل أفضل .

مصر الجديدة فى أول يناير ١٩٨٥

د . عبد العظيم رمضان
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
وعميد كلية التربية - جامعة المنوفية

obeikandl.com